رؤية عسكرية: الانتصار فى حروب الجيل الرابع

العميد. صفوت الزيات

أؤكد بدءًا أنه لم يكن إرهابيين هؤلاء الذين قاتلوا في غزة، كانوا مقاتلين من أجل الحرية، فكان لابد لمصر أن تكون معهم.

أنتم تعرفون أنه من الصعب على الإنسان أن يقيم مشهدًا عسكريًا وهو لا يدري تفاصيل الرقم، فمازال هناك الكثير خلف التل، للطرف الإسرائيلي والفلسطيني على السواء، ونحن على كل هذا نحترم الرقم تمامًا، فنحن هنا في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية فالكلمة لها وزنها والرقم له قضاته، وقد كنت محللا استراتيجيًا أثناء حرب العراق على إحدى القنوات الفضائية، وعلى الرغم من أن لديَّ آلاف الكتب إلا أنني إلى الآن أخشى أن أكتب كتابًا عن بغداد؛ لأنه مازال هناك أشياء خطيرة لم أصل إليها.

في هذه الحرب بدونا منقسمين وبشدة، وبدا أن مصر لم تعد بخير وأن الصورة التي كان يجب أن تُحسب على العدو أصبحت ملامة للضحية، لكنى عندما أتيت إليكم ودخلت هذه القاعة، وطلبت الدكتورة نادية الوقوف دقيقة حدادًا على شهداء غزة تقويت وازددت أملا بكم، وأحسست أنى دخلت مصر من بوابتها العربية المرصعة بأسماء الله الحسنى وآي الحمد والفتح والرحمن، لتأكدوا استحالة مصر بغير تاريخها العربى، واستحالة التاريخ العربي بغير مصر، لنا معها دومًا وعد ومواعيد، وعد بأن النوار سيكبر وأنتم النوار، وأن الوطن بإذن الله سيكون للمصلحين... أنتم. أتصور أن مصر بانتمائها العربي كانت أول نواياه وهي نفسها آخر خطاياه.

نحن نجتمع اليوم لنسأل فى فرح عن صبي غزاوي، قلب شاحنة التاريخ وصخب القاموس، وأعلن موت النحو وموت الصرف وموت القصائد العصماء.

منذ خمسة وثلاثين عامًا صدعتنا آلة الإعلام العربي والمصري بأسطورة التسوية والسلام كخيار استراتيجي، ولم ننتبه إلى الدمار الحادث من حولنا وفي قواتنا ومقدراتنا. أوهمونا أن الذئب الصهيوني سيقنع وينام حين يلتهم معظم أرض فلسطين، ونسوا أو تناسوا أن جوع الذئاب لا حدود له طالما ظل طليقًا في ساحات مدننا يوسع وكره كل يوم بجمجمة طفل من أطفالنا، في الوقت الذي تقر فيه الذئاب عن نفسها بأنهم الآلهة، وأن الله لم يحقق لهم ما أرادوا وهو وعدهم التوراتي وأنهم هم من سيحققونه بقوة المركافا.

تابعنا ذلك على مدخل معبر كارني حيث كان يوزع حاخامات الجيش الإسرائيلي عليهم الكتيبات، لن أقول لكم ماذا كُتب فيها، وجدنا حاخاماتهم يدخلون معهم إلى أحياء مدنية بالكامل يعطونهم التبرير التوراتي لقتل الفلسطينيين.

ربما ما شاهدتموه بالصوت والصورة هو القرآن الكريم، الله اختار لنا أعداءنا وربما قدمهم الإعلام ترجمة لآيات الله.

عملية الرصاص المصهور خطط لها العدو الإسرائيلي منذ عامين عندما خرجوا من جنوب لبنان، وهم يشعرون بوطأة أشياء أصبحت مؤثرة في الذاكرة الصهيونية وهي عدم فاعلية القوة العسكرية الإسرائيلية، خططوا منذ عامين حينما جاء الرئيس الأمريكي في زيارة للشرق الأوسط سميت بزيارة الخمسين ساعة زار خلالها رام الله والقدس وأعادوا أمامه

الخطوط العامة لهذه الخطة، هذا ما توصلت إليه وأنا أتهيأ لتحليل العدوان على غزة.

كانت كل الخيارات مطروحة، معبر كارني وبيت لاهيا، بيت حانون، كل هذه الأسماء كانت معروضة، لكن يبدو أن الجيش الإسرائيلي لم يوافق في النهاية على مسألة تقدم القوات الإسرائيلية عبر ممر من الضفة الغربية إلى غزة، ولن أتكلم أكثر من هذا لأننا نعلم تمامًا أننا عندما نجد الأعداء يتوضأون بدمائنا وجب علينا أن نقف لنصلى جماعة.

رجعت العملية فى يونيو الماضى على التوازي مع اتفاق التهدئة وصدق عليها إيهود باراك فى ١١/١٨ ثم صادق عليها إيهود أولمرت رئيس الوزراء يوم ١١/١٩ واجتمع مجلس الوزراء يوم ١٢/٢٤تحت عنوان خداعي وهو البحث فى مسائل الجهاد العالمي، صادقوا على الخطة وجاءتنا ليفنى يوم ٢٥ و٢٦، وأعلنوا فتح المعابر لدخول إمدادات لقطاع غزة. وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ظهرًا يوم السبت -يتباهون بكونه سبت- بدأ القصف، ويتباهون بأن القصف طال حفل تخرج كوادر شرطة غزة، ويتباهون بزيارة ليفني للقاهرة، ويزعمون أن القاهرة تواطأت معهم، والقاهرة أكبر من ذلك لكن عليها أن ترد وتفند هذه المزاعم.

يتباهون بأنهم قتلوا شبابًا صغيرًا يشتغل بالشرطة في قطاع الحصول فيه على وظيفة مسألة من ليالي القدر.

كانت الساعة الحادية عشرة والنصف وكان خروج الأطفال من المدارس، وهذا هو المقصود.. قتل أكبر عدد من المدنيين، كان المقصود خلق فجوة بين حكومة حماس والمجتمع المدني الفلسطيني.

ومنذ هذه اللحظة عربدت ١١٠ طائرات في سماء صغيرة هي سماء قطاع غزة، تقصف ١١٠أهداف بأكثر من ٢٠٠٠ طن قنابل، مما نتج عنه أعلى نسبة قتل في الحروب الجوية فى الصراع العربى الإسرائيلي، مواطن إسرائيلي يقابله ٢٦٩ فلسطينى.

انتهت الحرب ونسب القتل ١:١٠٠ لديهم ١٤ قتيل ولدينا حوالى ١٣١٥، فقط أذكركم أنه فى حرب لبنان الأخيرة كانت نسبة القتل ١:١٠، الآن نسبة القتل ١:١٠٠.

هناك شيء أريدكم أن تتفهموه حتى تصبح نتائج الحرب قريبة منكم، نحن لم تعد نحارب دولة ضد دولة، نحن حاليًا في حروب منذ مطلع العام ٢٠٠٠ في حروب عسكرية بين دولة وجماعات مقاومة أو تمرد أو إرهاب سموها ما شئتم، لم يعد يهمنا هذا الأمر. الدولة تتمتع بقوة عسكرية، وللعلم إسرائيل الدولة الثانية عالميًا في استيعاب ما يسمى بالثورة في الشئون العسكرية، هذه الثورة التى بدأت في منتصف الثمانينيات

عندما نأتى إلى مراحل الحرب الأخيرة ونجد الطرف الأقوى قد لجأ إلى وقف إطلاق النار حتى لو كان أحاديًا فهذا يعني أنه فقد أهم شيء في الحروب ألا وهو إرادة القتال

بخطاب «رونالد ريجان» عن ما يسمى «مبادرة الدفاع الإستراتيجي» وهي ببساطة نظام عسكري يربط الأنظمة جميعها بنظام واحد، فيربط أجهزة الاستطلاع والاستخبارات والمراقبة بمراكز القيادة والسيطرة وبالتالي بأنظمة الإطلاق والرصد: بمعنى آخر هي حرب رقمية. وأيضًا الجيش الإسرائيلي هو الجيش الثاني بعد الولايات المتحدة من حيث الميزانية المخصصة له؛ حيث تأتي ميزانية الجيش الإسرائيلي حوالي ١١,٥ مليار دولار هذا لتعلموا ماذا تعني آلة الحرب العسكرية الإسرائيلية.

أريدكم أن تتذكروا معي ماذا تعنى ثورة الطائرات البريديتور التي تحلق فوق سماء أفغانستان وتقصف وتقتل يوميًا المدنيين الأفغان، هذه الطائرات يديرها طيارون من قواعد جوية في القرب من لاس فيجاس في واشنطن. الطائرة بدون طيار ومسلحة، تقوم بنقل الصورة كاملة إلى شاشات عرض بالقواعد الجوية في الولايات المتحدة. كنت أقرأ مذكرة لأحد الطيارين الأمريكيين، كان يقول: «كنا بدلا من أن نذهب للعب القمار نمر على قاعدة الطائرات الأمريكية، أرى الصورة أمامي وآمر بإطلاق الصواريخ». يقتل عشرات يقتل مئات من المدنيين لا يهم.. لم يعد لنا ثمن في هذا العالم، ويقولون عنا إننا الإرهابيون. ولنا أن نسأل: ماذا يعني الإرهاب؟ أليس إطلاق هذه الصواريخ من الجو إرهابًا؟ ونحن نعرف إطلاقات الجو، أنت فيها تستطيع أن تقتل حشدا، لكنك وسط هذا الحشد لا تستطيع أن تنقذ شخصًا.

الطرف الثاني جماعات مقاومة تستند إلى دعم شعبي أيديولوجي، ديني، جغرافي، لا يهم. تتمتع بأنظمة تسليح متواضعة، وتدرك تمامًا استحالة النصر العسكري على الطرف الآخر، لكنها تعرف أنه يمكنها أن تحقق انتصارًا سياسيًا على الطرف الآخر. وأريدكم هنا أن تركزوا في دراساتكم المقبلة على نمط الحرب الحديثة، لأن هذا هو ما نتحدث بشأنه الآن.

حركات المقاومة هذه تدرك استحالة النصر العسكري فتقرر أن تعمل أسفل وأعلى منطقة القوة بالنسبة للطرف الآخر، هي لن تواجه طائرة، ولن تدخل في مواجهة مباشرة مع العدو، لكنها بالمقابل ستعمل أسفل منطقة القوة، وهذا هو ما يسمى «حروب العصابات».

إذن هي حرب «عصابات مدينية» تجرى رحاها في المدن لا تخرج عن حدودها ولذا كنت أسجل للمقاومة عدم خروجها للأماكن المكشوفة، يقولون عن هذا هروب بين النساء، احتماء بالمدنيين، يقولون ما يقولون لا يهم، نحن نعرف ما نريد تمامًا.

وهنا كانت الخطورة، إنهم يقصفون مدنًا وعندما يكون هناك قصف مدن فإن هناك بطبيعة الحال خسائر بشرية، ومع هذه الخسائر سيخرج الإعلام وستتضح الصورة.

على الجانب الآخر سيعمل فوق منطقة القوة وذلك بالضغط على عقلية صانع القرار السياسي للخصم، يرهقه تمامًا يقول له إن معركتك لم تنجح وهدفك لن يتحقق، وإن خسائرك ستكون كبيرة، نعم خسائرنا كبيرة، لكن فى الحروب يجب علينا ألا ننظر خلفنا، لأن العدو أمامنا.

إذن سيكون التركيز على عقلية صانع القرار، وسنحاول قدر الإمكان أن تطول مدة العملية محاولين إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالطرف المعادي؛ لأننا نعلم تمامًا أن البيئة الديموجرافية للعدو لن تحتمل، لأن مثل هذه البيئة المرفهة لا تتحمل مثلما نتحمل نحن، وهذا يحقق مزيدًا من الضغط على عقلية صانع القرار.

لذا لم تكن حملة الصواريخ التى كانت ممتدة طوال الوقت عبثًا، ولكن كانت جزءًا من الحرب السياسية، فأنت استطعت أن تضع ٢٠ ألف مواطن إسرائيلي تحت مرمى صواريخك، وهنا تكمن الخطورة.

وجدنا مع اليوم الأول للعدوان أن الصواريخ تصل لأشدود وبئر سبع وكريات ملاخى وتل عوف. بدأ الرقم يتزايد وربما يصل إلى ثلاثة ملايين إسرائيلى تحت خطر الصواريخ، وهذا ضغطٌ على أعصاب صانع القرار: «أنت لم تحقق هدفك».

عندما نأتي إلى مراحل الحرب الأخيرة ونجد الطرف الأقوى قد لجأ إلى وقف إطلاق النار حتى ولو كان أحاديًا، فهذا يعني أنه فقد أهم شيء في الحروب ألا وهو إرادة القتال.

شاهدنا جميعًا أولمرت وهو يعلن وقف إطلاق النار الأحادي، وبعدها أطلقنا مجموعة من الصواريخ وكأننا نعلن هزيمتهم فهم لم يحققوا هدفهم بإيقافها؛ لأن الطرف الأقوى عندما لاي حقق هدفه فهذا يعني أنه فشل، فهو عندما لا ينتصر يفشل، بينما الطرف الأضعف عندما يظل باقيًا حتى اللحظة الأخيرة فهذا يعنى أنه نجح. هكذا فعل حزب الله يوم ١٤ من أغسطس ٢٠٠٦ عندما قارب وقت وقف إطلاق النار، وجدناه يطلق ٣٨ صاروخًا، وكأنه يعلن أنه على الرغم من كوني الطرف الأضعف إلا أنني مازلت أتمتع بكامل قدراتي العسكرية والسياسية، والأهم مازلت موجودًا على أرضي.

هذه هي ما تسمى حروب الجيل الرابع من الحروب العسكرية، هي حرب عصابات مدينية يسمونها «حرب تمرد عصر المعلومات». يكون التركيز فيها من جانب الطرف الأقوى على التدمير، بينما يكون تركيز الطرف الأضعف على عقلية صانع القرار السياسي.

وهنا يجب أن نوضح أنه ما من حرب تقوم دون أهداف سياسية، والطرف الإسرائيلي أعلن عن أهدافه وقالها وإن كانت ضبابية. قال «سأهدر القدرة العسكرية والسياسية لحماس»، وقال أيضًا إنه سيعيد قدرة الردع الإسرائيلية. لكنه لم يفعل، بل على العكس خرج من هذه الحرب مسيطرًا عليه خليط من الخوف والشعور بعدم فاعلية تلك القوة التي يتمتع بها... أقولها دومًا: الشرق الأوسط تغير. قال أيضًا إن من ضمن أهدافه إعادة تشكيل بيئة أمنية جديدة فى جنوب إسرائيل.

إذا نظرنا إلى الهدف الأول بإهدار القدرة العسكرية والسياسية لحماس، هو قال: إن عدوانه على ثلاث مراحل، لكنه كاذب ومخادع، لا توجد مراحل. قال: إن المرحلة الأولى هي الحملة الجوية. حسنًا هو بالفعل شن حملة جوية لمدة أسبوع كامل، وكانت قوية وكثيفة وغير مسبوقة. استخدم فيها كما يقول ذخائر التوجيه الدقيق، الآن ذخائر التوجيه الدقيق تصيب هدفها على بعد من ثلاثة إلى خمسة أمتار، وهنا المشكلة ليست في السقوط وإنما في نصف قطر حجم التدمير، فعندما نقول إن نصف قطر التدمير ٢٠٠ متر، فهذا يعني أنه متى أُسقطت القنبلة ستصيب بكل تأكيد شيخًا وطفلة وامرأة.

وللتذكير، في فيتنام كان لإصابة هدف مساحته ٦٠- ١٠٠ بوصة كان يحتاج إلى ٨٨ طلعة طائرة إف٤ و ١٧٦ قنبلة ٢٠٠٠ رطل؛ لأن التوجيه كان صعبًا للغاية.

اليوم، عندما تكون القنبلة مؤكدة الهدف على بعد أمتار، فهذا يعنى أنه حينما يقول أنه أسقط من ٢٠٠٠ إلى ٢٤٠٠ طن وكلها توجيه دقيق. وبعد الضرب لنا أن نعلم كم قنبلة سقطت فى غزة، ولنا أن نتخيل كم عانت غزة.

هو بلا شك شن حملة جوية، وقد تكون حسب تقديراته أصابت جزءًا كبيرًا من مخزون الصواريخ لحركة حماس وحركات المقاومة، وبالذات الصواريخ طويلة المدى، ويمكن أن يكون دمر إلى حد ما منظومة مهمة جدًا لإطلاق الصواريخ، وحسب أرقامه يقول إنه قتل من ٢٥٠ إلى ٤٥٠ من عناصر حماس.

حسنًا... حركة حماس لديها ٢٥ ألف مقاتل: ١٢ ألفًا في الشرطة المدنية و١٣ ألفًا في القوات المقاتلة منهم تقريبًا ٢٠٠٠ هم الصفوة. فحتى لو تصورنا أنهم قتلوا من ٢٥٠: ٤٥٠ فهذا يعنى أننا أمام خسارة من ١٢٪: ٢٠٪.

حماس تقول الذي فُقد منها ٤٨ مقاتلا، إذن الخسارة حوالي٥,٢٪. لكني مازلت في رهبة من الرقم. في تصوري أنه في هذه المسألة على نحو خاص لم تحقق إسرائيل هدفها، ربما ألحقت إسرائيل خسائر كبيرة بحماس لكنها لم تهدر القوة السياسية والعسكرية لحماس.

أريد أن أركز على أن حماس طوال الحرب استمرت في معركة الصواريخ الناجحة، وهنا كان لدينا مؤشران: فى اليوم الأول وفى ظل هذه الضربة الجوية الخادعة غير الأخلاقية نجحت حماس في إطلاق ٥٣ صاروخًا، وهذا يعني أنها جيدة للغاية. المؤشر الثاني نزل العدد لعشرين في اليوم الثاني وكان قلقي بالغا، لكنه لم يدم طويلاً ووجدنا في اليوم الثالث الرقم يصل إلى ٧٠ صاروخًا.

في اليوم العشرين -وهو اليوم الأخطر الذى اغتيل فيه سعيد صيام، ودخل فيه جيش الاحتلال تل الهوى- نجحت المقاومة في إطلاق ٣٣ صاروخًا فى ظل هذا الضغط الكبير الذي استُبيحت فيه مدينة غزة.

إذن، كان معدل إطلاق الصواريخ في الأسبوعين الأولين ٤٠ صاروخ في المتوسط، وفي الأسبوع الثالث كان المعدل ٢٠ صاروخًا...يبدو أن معركة الصواريخ نجحت بالأرقام.

أيضًا وجدنا الصواريخ مداها يتزايد، وتذكروا أنه عندما وصلت الصواريخ إلى تل عوف أشرت إلى أنه توجد هناك قاعدة الطائرات القاذفات الإسرائيلية المحملة بالرءوس النووية، والمجهزة للوصول إلى معظم الدول العربية.

وبناءً على هذا رُسمت أقواس حمراء فى المجتمع المدنى الإسرائيلى الذى لطالما كان عقيدة مقدسة لـ«بن جوريون» عدم الاقتراب منه. الآن حزب الله في الشمال يصل حتى «نتانيا» وحماس تقترب من تل عوف ومناطق قريبة جدًا من ضواحي تل أبيب.

صحيح أن رأس الصاروخ بسيط للغاية، لكن الفكرة تكمن في غد، فلم تعد مدنهم آمنة كما كانت سابقًا.

أيضًا عدم اعتقال كوادر للمقاومة كل هذا يدلل على فشل العدوان الإسرائيلي على غزة.

أما ما قيل عن استعادة قدرة الردع الإسرائيلية، فالردع يعني أن أمنعك أن تؤدي فعلا ما بحساب المكسب والخسارة، وأتصور أن هذا المبدأ لم يتحقق فلمدة ٢٢ يومًا ظل المجتمع الإسرائيلي مهددًا وحتى الآن، أتصور أن مجتمعاتهم الآن لم تعد آمنة.

●●●